تصحيح كتاب « البخلاء »

للدكتور داود الجلبي

قرأت باهتمام في هذه المجلة في أعدادها (٦٦٧ — ٦٦٩) المقالة التي عنى فيها (أستاذ عظيم) بنقد كتاب البخلاء للجاحظ طبعة وزارة المعارف بمصر . وسبب اهتمامي أني حاولت قبلا تصحيح الكتاب المذكور المطبوع في دمشق سنة ١٣٥٧ هـ باعتناء علماء من أبناء الشام ، ونشرت تصحيحي في مجلة المجمع العلمي العربي بعنوان : (تصحيح أغلاط كتاب البخلاء) في الجزء الأول والثاني المزدوج ، وفي أربعة أجزاء مزدوجة أخرى تليه من المجلد العشرين مع تصحيح واستدراك في الجزء الاول والثاني المزدوج من المجلد الحادي والعشرين . فأردت أن أرى هل تنازل الأستاذ العظيم إلى مطالعة تصحيحي ، وما الذي جاء في تصحيحي موافقاً لتصحيحه ، وما الذي خالفه . وبعد المطالعة ظهر لي أن الأستاذ لم يعلم بوجود تصحيحي ، ووجدته عظيما حقا في انتقاده وآرائه الصائبة ، وعددت نفسي سعيداً لاتفاق التصحيحين في الغالب . ولست في صدد تعداد ما جاء موافقاً ، وما جاء مباينا أتركه لحكم من أراد الاطلاع والتتبع .

ولكن لا بد من ذكر بضع فقرات وردت في كلام الأستاذ العظيم تحتمل النظر فيها ، فأقول :

جاء في الرسالة في عددها ال ٦٦٩ ص ٤٧٥ كلمتا (الفرد) و (الجوهري) وقال الأستاذ : إن الفرد أصلها (العرض) والجوهري أصلها (الجوهر) . أما أنا فقد كنت صححت الفرد بالـ (قصرة) سقطت منها الصاد وحرفت وهي ما يبقى في المنخل بعد الانتخال . وصححت الجوهري بالـ (حواري) وهو لب الدقيق الأبيض الخالص . وتصحيحي هذا ينطبق على القصة دون الالتجاء إلى المجاز أو الاستعارة أو التشبيه .

وفي الصفحة عينها استنكر الأستاذ كلمة اتفاق ، وأراد تصحيحها بأنفاط جمع نفط ، ولكن الكلام كان على الزيت والسمن ، أي على الأدهان المأكولة ، والنفط ليس منها . أراد الجاحظ بالانفاق زيت الإنفاق ، وهو الزيت المعتصر من الزيتون الفج ، ويسمى بالزيت الركابي أيضا . جاء في التاج في مادة (فوق) : الانفاق وهو الفض من الزيت . وجاء فيه في مستدرك مادة (نفق) : وزيت أنفاق : غض . وجاء في مادة (ركب) : ويقال زيت ركابي لأنه يحمل من الشام على ظهور

في سبيل الاتجاه نحو مثال جديد ونحو حياة جديدة ، ومع أن السيدة جالبريت تعترف بأن الصين قد أفلحت في تحقيق جانب كبير مما رسمته لنفسها إلا أنها مع ذلك تحتاط ولا تبالغ في قيمة الإصلاحات التي تمت بالفعل حتى الآن . وهي ترى أن كثيرا من الوسائل والطرق التي تتبعها الصين وسائل عقيمة وطرق غير مجدية . يضاف إلى ذلك أن كثيرا من الأعمال التي أنجزت بالفعل وقعت في أيدي الأعداء فخربوها ، كما أن سكان المقاطعات الصينية التي وقعت تحت سطوة اليابانيين قد تدهوروا ورجعوا إلى حالة من الانحطاط لا تبشر بخير ؛ وذلك بتأثير ذل العبودية التي فرضها المنتصرون عليهم من ناحية ، وبتأثير الأفيون والمخدرات الفتاكة التي كان اليابانيون يوزعونها عليهم بسخاء من ناحية أخرى . فقيام الحرب اليابانية ولو أنه كان أهم الدوافع التي دفعت الصين إلى التقدم وإلى التطلع إلى حياة أفضل من حياتهم التي حيوها آلاف السنين إلا أن الحرب كانت هي أيضا العقبة الكؤود في سبيل استكمال تلك الحياة والوصول إليها ... ولقد انتصرت الصين أخيرا على غزاتها ، ولكنها وقعت في حرب أهلية لا يعرف بالضبط مدى تأثيرها وإن كان لا شك في أن عاقبتها تكون وخيمة . ثم إن مستقبل الصين ليس في يدها وحدها ، فهو لذلك لا يزال متقلقلا غير ثابت تتقاذفه كثير من التيارات ، ولكن الصين في أحلك ساعاتها كانت تتمسك بأهداب الأمل وكانت تؤمن بنفسها وبمستقبلها ، ودفعها ذلك الإيمان إلى العمل وإلى الإصلاح وهي مشغولة بالحرب . ولعل ذلك الإيمان الراسخ يساعدها مرة أخرى على التغلب على ما تلاقيه في طريقها من صعاب . لقد قال كونفشيوس حكيم الصين « إن شعبا يعيش بلا إيمان لا يمكن أن يعيش » .

أحمد أبو زيد

الإبل . اهـ . وقال ابن سينا فى الجزء الأول من القانون فى مادة (زيتون) : وقد يعتصر من الزيتون الفج الزيت ، وقد يعتصر من الزيتون المدرك . وزيت الانفاق هو المعتصر من الفج . اهـ . وقال داود الانطاكى فى الجزء الأول من كتابه تذكرة أولى الألباب : (زيت) هو الدهن المعتصر من الزيتون ، فإن أخذ أول ما خضب بالسواد ودق ناعماً وكب على الماء الحار ومرس حتى يخرج فوق الماء فهو الفسول ؛ ويسمى زيت أنفاق . وإن عصر بعد نضج الثمرة وطبخ بالنار بعد طحنه وعصره بعاصير الزيت فهو الزيت العذب . اهـ . وفى بحر الجواهر لمحمد بن يوسف الطبيب الهروى (طبعة الهند على الحجر) : والزيت قد يعصر من الزيتون المدرك ، وزيت الانفاق هو المعتصر من الفج ، وإنما سمى به لأنه يتخذ للنفقة ، ويقال له الركابى أيضا لأنه كان يحمل على الركاب أى الإبل من الشام إلى العراق ، كذا قال بعض الفضلاء . وقال مولانا نفيس : نقل أبو ريحان فى الصيدنة عن ماسرجويه أن كل ثمر يكون غضاً نضيراً يقول له أهل الروم انفاقين ، والانفاق مشتق منه . اهـ . أقول إن قول ماسرجويه هو الصحيح ، فإن الكلمة معربة من Omphax اليونانية ، ويريدون به كل ثمر فج ، ومنه الحصرم . وجاء فى لاروس الكبير أن Omphacine مشتقة من امفاكس المذكورة وجاء فى قاموس ليتره الطبى ، فى مادة Huile قوله :

Huile omphacine, huile amére tirée des olives encore vertes وترجمته : زيت الانفاق زيت مر معتصر من الزيتون الذى لا يزال غضاً . اهـ .

أما زيت الماء فالمفهوم أنه المعتصر من الزيتون المدرك ، سمى به فى مقابلة الركابى ، لأنه كان يجلب إلى البصرة بالسفن نهراً .

وأما الأبيات الواردة فى ص ٤٧٦ من الرسالة وهى :

تهنا لثعلبة ابن قيس جفنة يأوى إليها فى الشتاء الجوّع
ومذانب لا تستعار وخيمة سوداء عيب نسيجها لا يرقع
فكأنما فيها المذانب حلقة ودم الدلاء على دلوج ينزع

فكنت قد صححت (ودم) بـ (ودم) . وأرى الآن أن الأبيات تحتاج إلى تصحيحات أخرى كى يظهر لها معنى مقبول؛ ففى البيت الأول تستبدل (فينا) (بتهنا) و (خيمة) (بجفنة) وفى الثانى تستبدل (جونة) (بخيمة) و (سخامها) (بنسيجها) و(لا يرفع) بـ (لا يرقع) ، وفى الثالث (تنزع) (بينزع) ، و (دلوج) جمع دلاج وهو الولادى (بدلوج) ذلك أن الإنسان يبرد فى الشتاء فيحتاج إلى كن يقيه البرد وبخاصة إذا كان جائعا ، وهذا الكن فى البادية هو الخيمة لا الجفنة . قال الافوه الأودى هذه الأبيات مفاخراً . ولكن كيف يفخر الإنسان بخيمة سوداء لا ترقع خروقها . الصحيح أنها جونة . وأراد بالجونة القدر السوداء الطاهر ، لأنهم يفخرون بها لكونها دليلا على كثرة الطبخ بها . قال أحدهم يفخر بسواد قدره فى جملة أبيات :

بقدر كأن الليل سحمة قدرها ترى الفيل فيها طاميا لم يقطّع

أراد بالفيل الجمل الضخم . وبعد هذه التصحيحات تكون الأبيات هكذا :

فينا لثعلبة ابن قيس جونة يأوى اليها فى الشتاء الجوّع
ومذانب لا تستعار وجونة سوداء عيب سخامها لا يرفع
وكأنما فيها المذانب حلقة ودم الدلاء على دلوج تنزع

عبر عن سخام القدر بالعيب ، وهذا مدح فى معرض الذم ، كقول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وأما تصحيح الأستاذ العظيم كلمة العود بالفتح بالعَوْد بالضم فى البيت : الشرف العود فاكنافه ... الخ ، وقوله هو كناية عن ارتفاع قامته ماديا أو ارتفاع هامته معنويا ، فلا أدرى قامة من ، وهامة من قصد ، فى حين أن لا ذكر لرجل هناك . يجب تصحيح البيت هكذا : للشرف عوض الشرف ، واللام الأولى فى للشرف مفتوحة وهى للتأكيد ؛ والفرد عوض العود ؛ وجران عوض حران ، (كما فى طبعة دمشق) فالشرف هو الجبل ، والفرد وجران وينصوب (جمع يناصيب) أسماء جبال فى البادية ذكرها ياقوت فى معجم البلدان . والشاعر يقول فى امرأة بدوية أنه إذا وجدت منماً وضيقاً من زيد بن أيوب (ولعله كان حضريا) يكون خيراً لها أن تعود إلى منازلها التى ألفتها عند الجبال المذكورة . . .

ولقد أصاب الأستاذ بتصحيحه كلمة (كسجر) بـ (كسحر) فى البيت ، ونار كسجر العود ... الخ . كما أنى بآراء صائبة يشكر عليها فى مقالته .

(الموصل) الدكتور داود الجلبى